جامعة الشهيد حمه لخضر-الوادي-

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

الأستاذ : عمر بوصبيع

المادة : تاريخ وحضارة فينيقيا – المحاضرة السادسة-

المستوى: السنة الأولى ماستر

التخصص : تاريخ الحضارات القديمة

السنة الجامعية: 2022/2021

السداسي : الثاني

المظاهر الحضارية في فينيقيا

كان للفينيقيين قديما نشاط معروف في مجالات الحضارة، فعملوا على تأسيس المدن وبناء المجتمع واعتماد ديانة معينة، كما عرف عنهم اجتهادهم في النشاط الاقتصادي بمختلف مجالاته: الزراعة والصناعة والتجارة، واشتهروا في الجانب الثقافي بما توصلوا إليه من الكتابة الهجائية، أما في ميدان الفنون المختلفة فقد تميزوا عن غيرهم من شعوب العالم القديم بإنتاجهم الفني الخاص بمنطقتهم، وقد شهد لهم بإدخال البردي إلى بلاد الإغريق حيث اصبح استعماله معروفا ومألوفا حتى القرن السادس ق م، ولا ينكر الفينيقيون قديما تأثرهم بالحضارات العريقة كالحضارة المصرية في كثير من الأمور كالأدب والعقائد.

1- النظم السياسية:

عرف عن الفينيقيين في الشرق تأسيسهم لمدن على الساحل السوري بشكل مستقل عن بعضها البعض، بحيث كانت كل مدينة تدير مصالحها بصفة مباشرة، وكانت حولها مساحة من الأرض تبسط فيها نفوذها وتمارس فيها سلطاتها، تلك المساحة التي كانت بالعادة صغيرة الحجم لا تزيد عن المساحة من الأرض التي تضمن إنتاج الغذاء لكفاية حاجة سكان المدينة،

وفي هذا الاطار لابد من الإشارة إلى المدن الكبرى وخاصة **صور** و**صيدا**، قد مارست نوعا من السيادة على مدن أخرى ولو في بعض الفترات من الزمن على الأقل.

ومن المعلوم عبر تاريخ فينيقيا أن هذه المدن لم تتحد تحت راية واحدة ولم يصل الفينيقيون في أي مرحلة من مراحل تاريخهم إلى مستوى تكوين دولة فينيقية موحدة تضم جميع العناصر الفينيقية، والدليل على ذلك ما ذكره هيرودوت في حديثه عن ثلاثة قادة للأسطول الفينيقي الذي كان يحارب ضمن وحدات أسطول الملك الفارسي كزاركسيس (Xerxès) خلال حملته على بلاد اليونان سنة 480 ق م وهم تيترامنيستوس (Tetramnestos) الصيدوني، وماتان (Mattan) الصوري، ومارباالوس (Marbalos) الأروادي، وهو ما يثبت أنه لو كان هنالك اتحاد فينيقي لكانت تلك الأساطيل موحدة تحت قيادة واحدة.

ويبدو أن هذا النمط من الاستقلال وعدم الوحدة كان طابعا متبعا عند الفينيقيين، حتى في حالة قدرة مدينة على التحكم في المدن الأخرى وتوفر القوة اللازمة لذلك، فقرطاجة مثلا التي بلغت من القوة ما دفع المؤرخين إلى تسميتها بالإمبراطورية والتي أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية الغربية بفضل تفوقها التجاري والعسكري، ورغم ذلك لم تنظر قرطاجة إلى هذه المدن على اعتبار أنها ممتلكات لها، ولم تعتبر مواطني هذه المدن قرطاجيين، ومن جهة أخرى فإن هذه المدن أصدرت عملتها المستقلة عن العملة القرطاجية مثل مدن **صقلية** الفينيقية و**قادس** في إسبانيا، و**إيبيزا** بالبليار وذلك حتى في عز مجد قرطاجة السياسي والعسكري.

أما فيما يخص نظام الحكم المتبع داخل كل مدينة، فلابد من التذكر بأن الفينيقيين باعتبارهم كنعانيين أصلا، فهم جزء من تلك القبائل السامية التي نزحت من الجزيرة العربية والتي كانت البداوة من صفاتها المتجذرة، ومن تلك الصفات خضوعها لنظام القبيلة في أول الأمر، وبما أن النظام السياسي للقبيلة السامية يتسم بوجود رئيس أو شيخ للقبيلة تختاره الأسر العريقة، القوية والمتنفذة، التي تكون القبيلة، وغالبا ما تنحصر رئاسة القبيلة في أسرة واحدة بعض الوقت حين يعظم شأنها. وإلى جانب رئيس القبيلة كان هنالك مجلس متكون من

شيوخها ورؤساء عشائرها وهم أصحاب الرأي في القبيلة، كما أنه كان يوجد أيضا مجلسا عاما لرجال القبيلة. ولا شك أن النظام القبلي المعروف عند الساميين قد عرفه الكنعانيون، لذلك نقول أن سكان المدن الساحلية الكنعانية والتي أصبحت تسمى بالمدن الفينيقية فيما بعد، قد مروا بهذه المرحلة في فترة تاريخهم الأول، ولكنهم بعد أن استقروا في المدن الفينيقية اتبعوا نظاما سياسيا متطورا عن النظام القبلي، حيث أصبح منصب ملك المدينة بديلا عن منصب رئيس القبيلة، لذلك نجد هذا النظام الملكي يظهر بشكل جلي في الوثائق التاريخية ابتداء من القرن الرابع عشر ق م، كما تدل على ذلك رسائل **تل العمارنة** التي تشير بصورة دائمة إلى وجود ملوك وأمراء على رأس هذه المدن.

ويظهر من الوثائق المصرية والأشورية أن ذلك النظام الملكي الذي ساد في مدن الساحل الفينيقي بداية من القرن 14 ق م كان وراثيا من حيث المبدأ، مع الملاحظة أن التطورات والأحداث الطارئة قد تفرض غير ذلك في بعض الأحيان، سواء بفعل ظروف داخلية أو خارجية. ويمكن في هذا الاطار ذكر بعض الملوك الفينيقيين من أمثال **حيرام** ملك صور وأسرته، و**لولي** ملك صيدا وصور وغيرهما.

كان سلطان الملك في المدن الفينيقية يصطدم في كثير من الأحيان بهيئة مجلس الشيوخ التي كانت تحد من صلاحياته، وهو في حقيقة الأمر أي مجلس الشيوخ تطور لما كان يعرف بمجلس شيوخ القبيلة، إلا أنه في المدن الفينيقية كان يتكون في اغلب الأحيان من أكثر التجار ثراء في المدينة، ولعل ذلك طبيعيا في مدن تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة لان الطابع التجاري كان غالبا على جميع مظاهر الحياة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أو في الغرب، والملاحظ أنه بمرور الزمن وازدياد نشاط حركة الاستيطان ازدادت الأسر التجارية الكبرى ثراء من ناحية، وقوة وسلطانا من ناحية أخرى، وانعكس ذلك كله على مجلس الشيوخ حيث وصل الكثيرون منهم إلى عضويته، ولذلك صار هذا المجلس هيئة لها خطورتها في توجيه السياسة تكاد تساوي سلطتها سلطة الملك نفسه.

هذا التطور الذي طرأ على مجلس الشيوخ في مطلع الألف الأول ق م بلغ مداه بعد ذلك، وحدث تطور سياسي على نحو ما حدث في المدن اليونانية أيضا، إذ استطاع رؤساء

الأسر الثرية ممن يمثلون الأرستقراطية في المدن الفينيقية من الاستيلاء على الحكم فيها والتخلص من النظام الملكي.

وهكذا قامت في المدن الفينيقية حكومات الأقلية الأوليجركية مثلما حدث في المدن اليونانية وكذلك في روما بعد خلع الملوك. أصبح مجلس الشيوخ هو الهيئة الرئيسية في البناء الساسي للدولة، غير أننا لا نعرف على وجه التحديد متى حدث هذا التحول من الملكية إلى الجمهورية الأوليجركية، وإن كان من المرجح أنه حدث بين القرنين السادس والخامس ق م، كما يرجح أنه حدث مثل هذا التحول في قرطاجة في القرن الخامس ق م، وأصبح النظام العام للحكومة يقوم على ثلاثة أركان هي حاكم أو أكثر ينتخب لمدة سنة، وإلى جانبه مجلس للشيوخ ثم مجلس للعامة.

2- المجتمع الفينيقي:

كان المجتمع الفينيقي مؤلفا من طبقات ثلاث :

أ- **طبقة الأشراف والنبلاء**: وتضم كبار الملاك الإقطاعيين والمحاربين الذين باستطاعتهم اقتناء مركبات حربية، كما تضم جماعة من الأرستقراطيين التجار وذوو الأموال والملاحين الكبار، هذا بالإضافة إلى قباطنة السفن الذين كانوا يحظون بنفوذ ومكانة محترمة في المجتمع الفينيقي.

ب- **طبقة الصناع وصغار التجار والفلاحين** :

كان الصناع والحرفيون وأصحاب الفنون ينتسبون إلى نقابات تجمع أصحاب المهنة الواحدة، وبحكم انتشار هذه النشاطات الحرفية في فئة من المجتمع تقطن تقريبا نفس الأحياء والمناطق السكنية، فإن رابطة الدم أيضا تعتبر عنصرا جامعا لهذه الطبقة من المجتمع الفينيقي. أما فلاحو المجتمع الفينيقي فكانوا يمتلكون الأرض التي يعملون عليها ويحصدون القمح والشعير ويصنعون منه الخبز الذي يأكلونه.

وعموما فإن أفراد هذه الطبقة كانوا لا يعتمدون على اللحم في طعامهم، وكانوا يشربون الماء من العيون والآبار وينقلونه إلى منازلهم في جرب من الجلود أو في جرار

خزفية. وكانوا يضيئون منازلهم بحرق زيت الزيتون في مسارج بسيطة الصنع، وهي عبارة عن صحون خزفية في حافتها نتوء مقعر لتستقر فيه الفتيلة.

ج- **طبقة الفقراء**: وهم الذين لا يملكون قطعا أرضية إضافة إلى العبيد. ومن خلال هذه الوضعية الاجتماعية يبدو أن أفراد هذه الطبقة كانوا مسخرين لأعمال خدمة لصالح طبقة النبلاء والأرستقراطيين وربما بعض الميسورين من الطبقة الوسطى.

3- المظهر العسكري في فينيقيا:

كان نشاط الفينيقيين مرتكزا على الملاحة بصفة رئيسية، لذلك لم يكونوا جنودا رغم أن البونيين في الغرب تمكنوا من خوض حروب شرسة من خلال جيوشهم البرية والبحرية وكان أشهرها بقيادة حنبعل القرطاجي، ولكن الملاحظ أن تلك الجيوش لم تكن كلها بونية خالصة بل كانت تتشكل من الإيبيريين والغاليين والإيطاليين وغيرهم.

وإذا كانت المصادر القديمة بما فيها الأثرية والمكتوبة لم تحدثنا عن جيوش برية لفينيقيي الشرق، إلا أن هؤلاء الفينيقيين وبحكم موقع بلادهم المتواجدة على الطريق البرية بين مصر ودول بلاد الرافدين وآسيا الصغرى، فإنهم كانوا يميلون من أجل حماية أنفسهم إلى تحصين مدنهم وقلاعهم بأسوار منيعة، وهو الأمر الذي يظهر في النقوش الأشورية التي تعود إلى عهد شلمنصر الثالث (724-709 ق م) وسنحريب (705-681 ق م) والتي يظهر فيها سور مدينة **صور** بأبراجه وشرفاته العالية فوق جزيرتها الصخرية.

وكل هذا لا يعني في حقيقة الأمر عدم امتلاك الفينيقيين لجيوش برية، وعدم خوضهم لحروب على الأرض ضد من حاولوا غزو بلادهم، ولكننا نجهل في الحقيقة أعداد ومواصفات تلك الجيوش التي يبدو أنها لم تكن قوية ولا كثيرة العدد. وتحدثنا في هذا الصدد بعض المصادر الأشورية عن هزيمة شلمنصر الثالث لملك أرواد هزيمة ساحقة بعد مقاومة هذا الأخير له.

أما الجيوش البحرية فكان للفينيقيين فيها باع كبير، حيث أن الدول الشرقية كانت في أغلبها ذات جيوش برية غير أنها اذا ما احتاجت إلى جيوش بحرية كانت تلجأ إلى مساعدة

الفينيقيين لها، فكان سرجون الثاني قد استخدم الأسطول الفينيقي من أجل السيطرة على جزيرة قبرص، كما استعان ملكا الفرس داريوس (Darius) وكزاركسيس بالأسطول الفينيقي في حرب الفرس ضد اليونان، فكان الأسطول الفينيقي في معركة سلاميس 480 ق م يتألف من 300 سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trières) وكان بحارتها يرتدون خوذات ومشدات للخصر ويحملون دروعا خفيفة ونبال.